قانون البلاغة

— ٧ —

واما الاستطراد فهو ان يأخذ الشاعر في صفة يجعلها طريقة الى ما يريده من مدح او هجاء وغير ذلك ، ولا يزال فيما ركبه لا يزل عنه ، ولا ينتقل منه ، حتى يثني عنانه الى غرضه ، ويعطف قوله الى مقصده ، بعد ان يكون في الكلام الاول دلالة على ان المقصد غير ما عطف عليه ، فحينئذ يكون استطراداً فمنه قول حسان :

(ان كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام)
(ترك الأحبة ان يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة [1] ولجام)

وكقول البحتري :

(ما ان يعاف قذىً وان أوردته يوماً خلائق حمدو به الأحول)

وكقول ابي الشمقمق :

(واحببت من حبها الباخلينَ حتى ومقت ابنَ سلم سعيدا)
(اذا سيل عرفاً كسا وجهه ثياباً من اللؤم صفراً وسودا [2])

وكقول حاتم :

(ان كنت كارهة لميشتنا هاتا فحلي في بني بدر)

واما التكرار فكقول عبيد :

(هلاّ سألتِ جموع كنـ ـدة يوم ولوا اين اينا)

وكقول الآخر :

(وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة اولى فزارة)

واما الاستثناء فانه يوجب بلاغة بيان واول من اخترعه النابغة بقوله :

(ولا عيب فيه غير ان سيوفه بهنّ فلول من قراع الكتائب)

فهذا تأكيد للمدح بما يشبه الذم ، وقال الجعدي :

---

(١) الطمرّة مؤنث الطمرّ وهو الفرس الجواد او هو المستعد للوثب والعدو .

(٢) في رواية : بيضاً وسودا .

(فتى كملت خيراته غير انه جواد فما يبقي من المال باقيا)

واما التصحيف فكقول البحتري :

(ولم يكن المغتر بالله اذ سرى ليعجز والمعتز بالله طالبه)

وقوله : (وكأن الشليل والنثرة الحصداء منه على سايل غريف)

واما براعة الاستهلال فهي من ضروب الصنعة التي يقدمها امراء الكلام ، ونقاد الشعر ، وجهابذة الألفاظ ، فينبغي للشاعر اذا ابتدأ قصيدة مدحاً او ذماً او فخراً او وصفاً او غير ذلك من افانين الشعر ، ابتدأها بما يدل على غرضه فيها ، وكذلك الخطيب اذا ارتجل كل خطبة ، والبليغ اذا افتتح رسالة ، فمن سبله ان يكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه ، واوله ملخصاً بآخره ، وينبغي له ان لا يبتدئ المدح بشيء من التشبيب يتطير منه ويستجفى من كلامه ، وينبو عنه السمع ، وينبذه الطبع ، ويجتنب مثل قول ذي الرمة : (ما بال عينك منها الماء ينسكب)

فقد بلغني ان بعض خلفاء بني أمية استنشده شيئاً من شعره فأنشده هذه القصيدة فردّ في فيه وأسكته . ودخل الأخطل على معاوية فقال : اني مدحتك فاسمع فقال : ان انت شبهتني بالحية والصقر فلا حاجة لي فيه ، وان كنت قلت كما قالت الخنساء في اخيها :

(ولا بلغت كفّ امرئ متناولاً من المجد الا والذي نلت أطول)
(وما بلغ المهدون للناس مدحة وان أطنبوا الا الذي فيك أفضل)

فهات فأنشد الأخطل :

(اذا متّ مات الجود وانقطع الندى ولم يبق الا من قليل مصرّد)

فقال له معاوية ما زدت على ان نعيت اليّ نفسي . وأنشد الجمديّ بعض الملوك قصيدته التي يقول فيها :

(لقيت أناساً فأفنيتهم وافنيت بعد أناس أناسا)

فقال له : ذاك من فرط شؤمك ، وأنشد البحتري يوسف بن محمد الثغريّ قصيدة اولها :

(لك الويل من ليل تقاصر آخره) . فقال له (الويل والحرب لك)

فمن سبيل الشاعر المتوقد ، الهاجس الواري الزناد ، ان يكون هجاؤه اذا هجا ، واستبطاؤه اذا استبطا ، وتهنيته اذا هنا ، وتعزيته اذا عزّى او رثى ، او وصف على حسب مايقتضيه ذلك الموصوف ، وتوجبه تلك الحال . وان لا يضع كلامه في غير مواضعه ، وان يفتتح كل قصيدة بما يناسبها و يبتدئها بما يشير الى المعنى المقصود فيها ، فان البحتري لو كان هاجياً لكان قوله (لك الويل) في غاية الجودة ، لان كل صنف من صنوف القول يقتضي نوعاً من الابتداء وضرباً من الافتتاح لا يصلح لغيره ، وانما جعل الابتداء بالنسيب سبباً الى المدح وسلّماً اليه ، ليحسن الممدوح الاصغاء الى ما في التشبيب من وصف النزاع والصبابة ، وذكر الوجد والغرام ، اذ كانت النفوس مجبولة على استحسان الغزل والنسيب ، فلا يكاد يخلو احد من ان يكون ضارباً فيه بسهم ، وآخذاً منه بنصيب ، فاذا انتهى الشاعر الى المدح ، ورد على نفس مجتمعة ، وجأش ساكن ، وقريحة صبّية ، وسمع غير مُقسّم ، لحسُن موقعه ولطُف موضعه وشرُف مسمعه واستوفاه الممدوح ولم يله عنه . فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب ، وعدّل الاقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيملّ السامعين ، ولم يقطع و بالنفوس ظمأ الى المزيد .

ومن سبل الشاعر ايضاً ان يجتنب تسمية من يشبب به ، فربما وافق ذلك الاسم اسم من يكره الممدوح ذكره ، وان اضطر الى تسمية من شبب به اختار أعذب الاسماء وأحلاها موقعاً في السمع ، واجتنب التشبيب بالاسم المستكره كقول جرير :

(وتقول بوزع قد دببت على العصا   هلا هزئت بغيرنا يا بوزع)

واما براعة التخلص فان من حكم التشبيب ان يكون ممتزجاً بما بعده من مدح اوهجاء وغيرهما ، وغير منفصل منه ، فان القصيدة مثلها كمثل الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر بطل الجسم ، وحذاق الشعراء لا يفصلون بينهما ، بل يصلون الاول بالآخر حتى تراه كالرسالة والخطبة لا ينقطع جزء من جزء . كقول مسلم :

(أجدك هل تدرين ان رب ليلة   كأن دجاها من قرونك تنشر)

(نصبت لها حتى تجلت بغرة   كغرة يحيى حين يذكر جعفر)

وكقول محمد بن وهب :

(ما زال تلثمني مراشفه ويماني الابريق والقدح)
(حتى استرد الليل خلعتـه وبدا خلال سواده وضح)
(وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح)

وكقول البحتري :

(اقِلّ واكثرْ لستَ تبلغ غايةً من الجود الا ان تضارع هيثما)

وكقوله : (ولوانني أُعطيت فيهن المنى لسقيتهن بكف ابراهيما)

واما الترديد فهو ان يعلّق الشاعر لفظةً في البيت بمعنىً ثم يردّها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر كما قال زهير :

(من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا)

وكما قال : (واحفظ مالي في الحقوق وانه لجمٌ وان الدهر جمٌ نوائبـه)

وهذا من أحسن كلام وأجزله وقال ابو نواس :

(صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها لو مسّهـا حجرٌ مسته سرّاء)

وقال ابن جبلة :

(مضطرب يرتجّ من أقطاره كالماء جالت فيه ريح فاضطرب)
(اذا تظنينـا به صدّقنـا وان تظنى فوته العير كذب)
(لا يبلغ الجهـد به راكبـه ويبلغ الرمح به حيث طلب)

وقد يسمى التعطف ايضاً . واما (التتميم) فهو ان يأخذ الشاعر في معنىً ، فيورده غير مشروح ، فيقع له ان السامع لا يتصوّره بحقيقته ، فيعود راجعاً الى ما قدّمه فإما ان يؤكده وإما ان يجلي الشبهة فيه كما قال :

(أقمنا أكْلُنا أكل استلابٍ هناك وشُرْبُنا شُربٌ بدار)

ثم علم انه لم يتم المعنى وانه لبّسه فقال :

(ولم يك ذاك سُخفاً غير اني رأيت الثوب[1] سخفهم الوقار)

---

(١) لعل صوابه (الشرب) وهو جماعة الشاربين .

وقال ابن الرومي :

(آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات اذا دَجَوْن نجوم)
(منها معالم للهدي ومصابحٌ تجلو الدجى والأخريات رجوم)

واما جمع المؤتلفة والمختلفة في بيت فكقول امريء القيس :

(سماحة ذا وبرُّ ذا ووفاءُ ذا ونائل ذا اذا صحى واذا سكر)

ويقال انه لم يجمع واحد في بيت واحد جماعة اشياء قبله واما التبيين فكقول الفرزدق :

(لقد خنت قوماً لو تساق اليهم طريد دم اوحاملاً ثقل مغرم)

فلو اقتصر على هذا البيت لكان جيّداً ، ودخل في باب ماحذف جوابه ، فلما احتاج الى تبيينه بينه فقال :

(لألفيت فيهم معطياً ومطاعناً وراءك شزراً بالوشيج المقوّم)

فبيّن قوله (حاملاً ثقل مغرمٍ) بقوله (لألفيت فيهم معطياً) وقوله (طريد دمٍ) بقوله (ومطاعناً بالوشيج المقوّم) .

واما المذهب الكلامي فكقول النابغة :

(ولكنني كنت امرءً ليَ جانبٌ من الارض فيه مستراد ومذهب)
(ملوك وإخوان اذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب)
(كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في مثل ذلك أذنبوا)

يقول لاتلمني في مدحي آل جفنة فقد احسنوا اليّ ، كما لو احسنت الى قوم فشكروا لك ، لم تر ذلك ذنبًا ، وهذه طريقة الجدل وانما اتفق له لجودة القريحة وفضل التمييز .

واما التفويف فانما سمي التفويف تشبيهاً بالبرد المفوّف ، وهو الذي يخالط وشيه شيء من بياض ، والفوف بياض يكون على الاظفار سمي البرد مفوّفاً به . وهذا النوع من الشعر هو ان يسهل له مخارج الحروف ، ويرفّ منه رونق الفصاحة مع الخلوّ من البشاعة ، وان يكون ظاهر المعنى لايحتاج الى إعمال الفكر في استنباط معانيه ، وان كان خالياً من جميع الاوصاف التي تقدمت وتأخرت عنها ، كما قال جرير :

(هم الاحبار منسكة وهدياً وفي الهيجا كأنهم صقور)

(بهم حدب الكرام على المعالي وفيهم عن مساءتهم فتور)
(خلائق بعضهم فيها كبعض يؤم كبيرهم فيها الصغير)
(عن النكراء كلهم غبيّ وبالمعروف كلهم بصير)

وكما قال مروان بن ابي حفصة :

(بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم اسود لها في غيل خفّان أشبل)
(هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل)
(هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا أجابوا وان أعطوا اطابوا وأجزلوا)

وكما قال ابراهيم بن العباس :

(تطلّع من نفسي اليك نوازع عوارف ان اليأس منك نصيبها)
(حلال لليلى ان تروع فؤادنا بهجرٍ ومغفور لليلى ذنوبها)
(وزالت زوال الشمس عن مستقرها فمن مخبري في اي ارض غروبها)

واما (التفريع) فهو ان يأخذ الشاعر في وصف من الاوصاف فيقول ما كذا ... ؟ فينعت شيئاً من الاشياء نعتاً حسناً ثم يقول — بأفعل من كذا ، كما قال الاعشى :

(ما روضة من رياض الحزن مُعْشبة خضراء جاد عليها مُسْبلٌ هطل)
(يضاحك الشمس منها كوكب[1] شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل)
(يوماً — بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها اذ دنا الأُصُل)

وقال عبد بني الحسحاس :

(وما بيضة بات الظليم يحفها ويرفع منها جؤجؤاً متجافيا)
(ويرفع عنها وهي بيضاء طله و... قرناً من الشمس ضاحيا)
(ويجعلها بين الجناح ودفها ويُلحفها زفاً من الريش وافيا)
(— بأحسن منها يوم قالت أرائح مع الركب ام ثاوٍ لدينا لياليا)

وهذا الباب كثير في أشعارهم .

واما (التسميط) فهو اعتماد الشاعر تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع

(١) الكوكب نور الروضة .

او شبه به ، او من جنس واحد في التصريف والتمثيل ، وانما سمي تسميطاً تشبيهاً بالسمط في نظمه وحسن وصفه ، وهو كقول امرئ القيس :

(مكر مفر مقبل مدبرٌ معاً   كجلمود صخر حطه السيل من عل)

فأتى باللفظتين الاولين مسجوعتين في تصريف واحد ، وجاء بالتاليتين شبيهتين بهما في التعديل والتمثيل ، والمراد من هذا ان تكون الأجزاء متوالية وان تكون مسجوعة .

واما (التصريع) فهو ان يقصد الشاعر لتصيير مقطع المصراع الاول في البيت الاول من القصيدة كمقطع المصراع الثاني ، وقد فعل ذلك المتقدمون والمحدثون حتى ان بعضهم ربما صرّع من القصيدة الابيات يدل بذلك على اقتداره وسعة بحره ، ودقة فكره ، ورحب باعه ، وتوقد زكائه ، ويدلك على ذلك قول ابي تمام :

(. . . . .   وانما   يروقك بيت الشعر حين يصرّع)

قال امرؤ القيس وهو أوسعهم مذهباً في هذا الباب :

(قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل   بسقط اللوي بين الدخول فحومل)

ثم قال :

(أفاطم مهلاً بعد هذا التدلل   وان كنت قدأزمعت صرمي فأجملي)

ثم قال :

(الا ايها الليل الطويل الا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل)

واحسن ما يكون التصريع في اثناء القصيدة اذا كان الشاعر منتقلاً من وصف الى غيره .

واما (التضمين) فقد لهج جماعة من المتأخرين به واستكثروا فمنهم من يورد البيت بأسره والبيتين ومنهم من يقتصر على الأنصاف ومنهم من يأتي بالأرباع وبما دون ذلك ومنه قول الحماسي :

(وقائلةٍ والدمع سكب مبادر   وقد شرّقت بالماء منها المحاجر)
(وقدابصرت حمّان[1] من بعدانسها   بنا وهي منا موحشاتٌ دوائر)
(كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمُر بمكة سامر)

---

(١) حمّان بكسر الحاء وتشديد الميم والف ونون محلة بالبصرة .

(فقلت لها والقلب مني كأنما يقلبه بين الجوانح طائر)
(بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر)

وقال ابو تمام :

(قتلته سراً ثم قالت جهرة قول الفرزدق لا بظبي أعفر)

وقال الأخطل الأهوازي :

(واقد سما للخُرَّمي فلم يقل عند الوغاء لها تضايق مقدمي)

وقال ابو هفان :

(بل رأيت العاشقين ببابه من بين مدعوّ به ومطفّل [1])
(لذكرت بيتاً قاله حسان في أولاد جفنة في الزمان الاول)
(يغشون حتى لا تهرّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل)

واما (القسم) فهو ان يقسم الشاعر، او يحلف غيره باقسام تتعلق بغرضه المقصود معتمداً بذلك الابداع فيما ينظم، كما قال الاشتر النخعي :

(بقّيت وفري وانحرفت عن العلى ولقيت أضيافي بوجه عبوس)
(ان لم أشنّ على ابن حرب غارة لم تخلُ يوماً من ذهاب نفوس)

وقال ابو علي البصير :

(اكذبتُ أحسن ما يظن مؤملي وهدمتُ ما شادته لي أسلافي)
(وعدمت عاداتي التي عودتها قدماً من الاتلاف والإخلاف)
(وصحبت اصحابي بعرض معرض متهكم فيه بمال وافي)
(وغضضت من ناري ليخفى ضوؤها وقريت عذراً كاذباً أضيافي)
(ان لم أسُنّ [2] على عليّ حلة تضحي قذى في أعين الأشراف)

واما الاعنات [3] فهو ان يلتزم الشاعر في القوافي ما لا يلزمه، إبانةً عن اقتداره وتوسعه وفسحة مجال فكره، وهذا المذهب على ضروب كثيرة قال الحطيئة :

---

(١) طفّل الرجلُ صار طفيلياً وطفّل عليه كتطفل . (٢) سنّ عليه الدرع صبها عليه وألبسه إياها . (٣) وهذا النوع يسمي لزوم ما لا يلزم .

(ألا من لقلبٍ عازم النظرات   يقطع طول الليل بالزفرات)
(اذا ما الثريا آخر الليل أعنقت[1]   كواكبه كالجزع[2] منحدرات)

فجاء بالراء في جميعها قبل حروف الردف ، وهي غير لازمة فقال حسان[3] بن ثابت فلزم الحرف الذي بين الف التأسيس والروي وأعاده بعينه في قصيدته التي يقول فيها :

(بكل كميت صورة ندف حلقه   وقب طوالٍ مشرفات الحوارك)

وقد التزم ابن الرومي في هذا ما لم يلزمه فالتزم في قصائد في حرف الردف الياء دون الواو ، والواو دون الياء ، وكسر في قصائد ما قبل حرف الروي ، ولم يفتح ولم يضم ، وضم في بعضها ولم يكسر ، ولم يفتح ، وفتح في بعضها ولم يضم ولم يكسر .

واما تجاهل العارف كقول زهير :

(وما ادري وسوف إخال ادري   اقوم آل حصن ام نساء)

وقول الآخر :

(بالله يا ظبيات القاع قلن لنا   ليلاي منكن ام ليلى من البشر)

واما الهزل الذي يراد به الجد فكقول الشاعر :

(اذا ما تميمي اتاك مفاخراً   فقل عد عن ذا كيف اكلك للضب)

(الخاتمة في الآتي)

---

(١) غابت . (٢) اي كالخرز اليماني اذا تساقط من سلكه . (٣) لا معنى هنا لحسان بن ثابت .